

قراءة في رواية " لبيك حج الفقراء " للمفكر مالك بن نبي

(مقاربة تأويلية لرواية فكرية فلسفية)

أ/ واكي راضية

جامعة زيان عاشور-الجلفة-

حياته:

مالك بن نبي (1905-1973م) من أعلام الفكر الإسلامي الذين أدى حجب فكرهم عن الناس إلى عدم اهتمام الدارسين بهم، فقد أمضى أكثر من ثلاثين عامًا متأملًا يحلّل ويضع شروط النهضة للمجتمع الإسلامي. وُلد مالك بن نبي عام 1905 في قسنطينة شرق الجزائر، وكانت مراحل دراسته الابتدائية والثانوية بين مدينتي (تبسة) و(قسنطينة). سافر عام 1925 إلى مرسيليا وليون وباريس؛ بحثًا عن عمل ولكن دون جدوى، فعاد إلى الجزائر حيث عمل في تبسة مساعد كاتب في المحكمة، وأتاح له عمله هذا الاحتكاك بمختلف شرائح المجتمع أيام الاستعمار؛ مما ساعده على تفسير ظواهر مختلفة فيما بعد.

وفي عام 1928 تعرّف مالك بن نبي على الشيخ عبد الحميد بن باديس (1887-1940م)، وعرف قيمته الإصلاحية، ثم سافر مرة ثانية إلى فرنسا عام 1930؛ حيث سعى للدخول إلى معهد الدراسات الشرقية، ولكنه لم ينجح في الدخول، وسُمح له بدخول معهد اللاسلكي وتخرّج فيه مهندسًا كهربائيًا.

بقي في باريس من عام 1939 إلى 1956، ثم ذهب إلى القاهرة للمشاركة في الثورة الجزائرية من هناك. انتقل إلى الجزائر عام 1963. بعد الاستقلال. حيث عُيّن مديرًا للتعليم العالي، ولكنه استقال من منصبه عام 1967، وانقطع للعمل الفكري وتنظيم ندوات فكرية كان يحضرها الطلبة من مختلف المشارب كانت النواة لملتقى الفكر الإسلامي، الذي يُعقد كل عام في الجزائر، وظل مالك بن نبي يُنير الطريق أمام العالم الإسلامي بفكره إلى أن تُوفي في 31 أكتوبر عام 1973.

كتبه و مؤلفاته:

أما آثاره الفكرية، فيمكن القول: إنه لم يكفَّ عن التأليف من سنة 1946، حيث ألَّف أول كتاب له وهو (الظاهرة القرآنية)، وتلاه برواية (لبيك) 1947، وهي رواية فلسفية، ثم (شروط النهضة) 1948، (وجهة العالم الإسلامي)، (الفكرة الأفروآسيوية) 1956، (مشكلة الثقافة) 1959، (الصراع الفكري في البلاد المستعمرة) 1960، وهو أول كتاب كتبه مالك بن نبي بالعربية مباشرة بخلاف معظم كتبه التي ألَّفها بالفرنسية. وفي عام 1960 كتب أيضًا كتابه (فكرة كومونولث إسلامي)، (ميلاد مجتمع) 1962، (إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي) 1969، (مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي)، (مذكرات شاهد القرن) 1970، (المسلم في عالم الاقتصاد)، ونُشر له بعد وفاته كتب (دور المسلم ورسالته في القرن العشرين) 1977، (بين الرشاد والنتية) 1978، ولمالك بن نبي آثار فكرية لم تطبع، وهي في صورة مخطوطات مثل: (دولة مجتمع إسلامي)، (العلاقات الاجتماعية وأثر الدين فيها)، (مجالس تفكير) وغيرها.

مدخل:

لم أستطع إخفاء دهشتي وأنا ألمح اسم «مالك بن نبي» في كتاب وتحت كلمة «رواية» في مجمل أعماله، دون أن أعرف كيف شدتني فكرة المزج بينها وبين اسم الفيلسوف، فبدأت أحاول كالمهوفة أربط بينهما بنوع من التركيب ثم التفكيك ثم التركيب من جديد، لأستوعب اسما لأديب جديد أم نوعاً جديداً وأسلوباً فريداً للمفكر مالك بن نبي.. لاكتشف فيما بعد أنها الرواية الوحيدة التي أبدعها يرار بن نبي، إلا أنها بقيت مدفونة حبيسة الأدب الفرنسي لأكثر من ستين عاماً، ولم تر النور إلا بعد أن عثر عليها الدكتور زيدان خوليف وتولّى نقلها إلى العربية سنة 2009م.

«لبيك: حج الفقراء» هي رواية قصيرة في حجمها بسيطة في نظمها، ليست ذات مكانة تذكر في عالم الأدب الروائي كما ينعتها أصحاب الأدب، اللهم إلا من يستهويه أن يعرف طريقة وأسلوب مفكر عملاق في فلسفة الحضارة، وهو يحاول أن يمارس فن الرواية، التي لم يخترها إلا لتكون لساناً يترجم به ما تجود به قريحته من الأفكار، لكنّه سريعاً ما أدرك بعد هذه المحاولة أن الرواية ليست مما يصلح له فتركها إلى غير رجعة، إذ الرواية لا تمنحه الحرية لزحام الأفكار، إذ تشغله عن ذلك بصنع الشخصيات والأحداث والتفاصيل وبالصور والخيال واللغة والنظم، فلعلّها أثقلت

وعرقلت عمق تفكيره فتركها.. لكننا إذا تأملنا العمل قياساً على نجابته الفكرية وإبداعه التّطيري فنجد أنّه مغامرة متعبّة تجسّم لها بن نبي للتّقل بين طرفي الموهبة.

لقد أخذني الفضول لا إلى الاكتفاء بقراءة هذه الرواية فحسب، وإنما كذلك لمعرفة ذلك التّصور الفلسفي للوعاء الذي أنتجها، وهذا ربما قد يتطلّب إمعانا وتمعّنا في غايات ومقاصد الكاتب قبل الاستمتاع بالحبكات الفنية في روايته، خصوصا وأنك بصدد القراءة لمفكّر في الحضارة، إمعانٌ يجعلنا لا ننفكّ نتساءل عن أيّ معاني هي التي يريدّها بن نبي أن تصل إلى قارئه عبر هذا الأسلوب الأدبي الذي لم نعتده عليه؟

بينما كان ما دفعني إلى الكتابة عنها هو ما هالني -من قراءاتي الأولى عنها- قلّة الضبط في الرّبط بينها وبين مشروع بن نبي الحضاري، حين يتناولها قرّؤها أو الذين يكتبون عنها مخرومة عن الوسط الذي ولدت فيه، ويعاملونها كما تعامل الروايات ويهتمون بحبكاتنا الفنية وتسلسل أحداثها، بشكل يجعل الأديب أو الناقد يتناولها ويفهمها بمنظور مفصول عن كاتبها ومراده وأحلامه وآماله، بل إنّه قد لا يتوانى أن يغمطها حقّها ويبسط كلاما طويلا عريضا في نقد أسلوبها وطريقته في حبك أحداثها... غافلا عن أبعادها الحضارية العميقة، وقد يكون عذر المهتم بفن الرواية أنّه يتناولها من منطق اختصاصه واهتمامه، لكننا نجد أنّ غيره ممن اهتم أيضا بفكر بن نبي وكتب عن هذه الرواية عالجها هو الآخر أيضا بعيدا عن عمق مشروعه في بناء الحضارة، وهو ما جعلني أكتب عنها بأدوات الناقد المعاصر -بحكم التخصص- ما قد يعين على أن يجلي هذا الخفاء، ويعيد لها مكانتها، كجزء لا يتجزأ من بنائه الفكري في «سلسلة مشكلات الحضارة»، ولو أن هذا يقتضي ربما إحكام فكر بن نبي وربطه بالتغيّرات التاريخية التي عاشها ومتابعة التطور الكرونولوجي لأفكاره... إلا أنّ المحاولة المستوعبة بشكل بسيط لكل هذا لا تمنع من تجربة ذلك.

إنّ فمن المهم ربما أن أوضح هنا أن دافعي ليس للكتابة نقديا عن الرواية فحسب، وإنّما للعودة إلى الرواية مرة أخرى فأعيد قراءتها لكن على ضوء فكر مالك بن نبي عن طريق الكتابة، كي أشارك بها المعنى الذي اختاره مالك ليخطّ من خلالها رسالة يبنّيها إلى الجيل الجديد؛ و على إثر إنجازي القراءة الثانية "كتابة"، محاولة الوقوف عند الأفكار التي اختارها "الذي استقى قبسا من النبوة" موضوعا لروايته، فإذا بي أجذني أدخل في مغامرة أخرى توازي المغامرة التي أدخلتني فيها

القراءة الأولى، ووجدت نفسي أسير مسارين المسار الذي خطّه الكاتب للرواية في أثناء حدوثها، ومساراً آخر ستننتجه لي بعد أن أتمّ قراءتها، و تعيني لأدخل في مشروع بن نبي من منظور الرواية، كما من بوابة البحث في سرّها، الذي بدّأته بسؤال، ربما هو أول ما سيستوقف القارئ لها، خصوصاً المهتم بالفكر البذنبويّ، سؤالٌ ربما تحمل الرواية إجابة عليه بين طيّات أحداثها أو على لسان شخصيّاتها، و ربما قد تتركه يتخبط في امتداداته البعيدة باحثاً عن جواب ما وهو:

لماذا كتب مالك بن نبي مثل هذا العمل الذي يفرق بالبساطة والعفوية، بقدر ما يفرق بالعمق والتأمل وخصوصية المعاني الحضارية التي يمكن تتوالد من أجنته؟

ربما يكون السؤال ساذجاً **لماذا ألف هذه الرواية؟!** غير أن هذه السّذاجة سريعاً ما تلبث أن تختفي عندما ندرك فحوى السؤال الذي يقودنا إلى اكتشاف عمق التفكير الفلسفي عند مالك بن نبي وهو يصوغ رواية أدبية، حيث تذهب بك أفكاره من خلالها حيث يريد أن تصل دون أن تشتد في الطريق؛ أهمية هذا السؤال هو ما جعلني لا أعدم جهداً يقودني للبحث عن: **سبب كتابة هذه الرواية؟ وزمن كتابتها؟ وأين كتبها؟ وفي أي مرحلة من فكره اقتبسها منه؟؛ ولماذا اختارها ليؤسس بها «عالم الأفكار» الذي أبدع في نظمه عبر حلقات سلسلته في مشكلات الحضارة؟!**

التعريف بالرواية:

رواية بن نبي **لبيك حج الفقراء** " إحدى إبداعات مالك بن نبي رحمه الله، وقد أراد بها كما قال لناشرها الفرنسي أن يمسّ جزءاً مهماً من الفلكلور الجزائري (أعتقد أن مالكا قد قصد معنى آخر غير المعنى الذي يتوارد للذهن بخصوص كلمة فلكلور، ولكنها الترجمة!، وربما كان هذا المعنى له علاقة بالقارئ و معارفه؛ أي بالمتلقي الفرنسي آنذاك لأنّها موجهة له بالضرورة على اعتبار أنّها من الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية) وهي من منشورات دار الفكر في دمشق لعام 2009م. قام بترجمتها عن الفرنسية الدكتور زيدان خوليف، الذي عثر على هذه الرواية أثناء إعداده لرسالة الدكتوراه عن حياة مالك بن نبي وأعماله.

وكما جاء على لسان عمر مسقاوي تلميذ مالك بن نبي فإن قصة "لبيك حج الفقراء" قد "رسمت عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدة إلى منازل الوحي".

ففي هذه الرواية ذات الأحداث البسيطة، استطاع مالك أن يقدم لنا وصفاً للمجتمع الجزائري ببساطته وأصالته ومحافظته على هويته وتراثه ودينه رغم كل المحاولات الفرنسية لطمس هذه الهوية وحرف الشعب عن فطرته وإنسانيته.

فإبراهيم بطل القصة الذي قرر الاستجابة لنداء الفطرة والدين، نداء المجتمع وعاداته وتقاليده، نداء الذكريات العائلية التي حفرت في نفسه قيم دينه وأمته ومجتمعه، كان يمثل تلك العودة إلى الروحانية والنقاء بعد ابتعاده عن تلك القيم، وغوصه في قذارة الانحلال والمادية.

لا أعتقد أن مالكا كان يبتغي من كتابة روايته تلك أن يبدع رواية أدبية وكفى، بل إنني أرى أنه كان يريد أن يؤكد على أن في هذا المجتمع قيماً راسخة ليس من السهولة طمسها، وأن هذه القيم هي التي ستحمي حضارتنا من الذوبان والاضمحلال؛ فقوة الدين، قوة المركز، تشد دائماً أفراد المجتمع لتعيدهم نحو تلك القيم مهما ابتعدوا عنها، ومهما أثرت فيهم دعوات المادية الفجة.

لم يكن مالك بن نبي منشغلاً بمسألة الهوية بقدر انشغاله بالبحث عن أسباب الانحطاط والقابلية للاستعمار، ولكنه في هذه الرواية تطرق بحسه السليم إلى مسألة الهوية وكيف تكون حامية ومنجية للشخصية ومكوناتها.

وبالرغم من أن تلك الرواية قد كُتبت قبل سنوات كثيرة (1947م) فقد وجدتتها من الروايات التأصيلية للأدب الجزائري، و الأصيلة أيضاً في بعدها الحضاري حيث تعاملت مع المجتمع من منظور الاحترام، وليس من منظور النقد والاحتقار، فقد صورت لنا تلك البساطة والحميمية في التعامل بين أفراد المجتمع، وتطرقت لمسألة في غاية الأهمية، وهي مسألة انتماء المجتمع الجزائري إبان الاستعمار للمركز الإسلامي رغم محاولات الطمس و الإدماج؛ فالفرد الذي يخرج عن قيم المجتمع هو فرد منبوذ ومطرود من قبل الشعب، ولكنه سرعان ما يعود للاندماج ويلقى بالترحيب والسرور إذا عاد لاللتزام بهذه القيم واحترمها.

قيمة الرواية في الأدب الجزائري:

”لبيك حج الفقراء“ رواية بسيطة ولكنها مؤثرة و عميقة، لا تخلو من تشويق رغم سلاسة أحداثها، هي من تلك القصص التي نسمعها عن إيمان العجائز (إيمان الفطرة النقي)، وسهولة التوبة مع

قوتها إذا توقّر الدافع (لأنها توبة من مشكل عويص ألا و هو الادمان لكنّه وسط الذل و الامهان)، و رحمة الله بعباده، وأنه يهدي من يشاء إلى طريقه المستقيم و يثبتهم عليه، ولكنها من الروايات التي تذكرنا بأن قيمنا وهويتنا هي طريق نهضتنا، وأن عودتنا لتلك الأصول هي التي يجب أن ننطلق منها لرسم حياة جديدة وحضارة اتصالية فاعلة نابعة من ذاتنا ومن أخلاقنا ومن خصائصنا، تؤكد للعالم بأن هناك حضارة قوية راسخة، تستطيع مقاومة تيار المادية الجارف الذي يريد الهيمنة على باقي الحضارات ومحوها من الوجود.

لا تتدهش، فالرواية رغم أنها نشرت سنة 1947م باللغة الفرنسية، إلا أنها لم تترجم ولم تنشر مرة أخرى، إلا سنة 2009، حين رعاها الدكتور زيدان خوليف حق رعايتها فترجمها إلى العربية، وتكفل عمر كامل مسقاوي بنشرها (دار الفكر-دمشق) وهو من تلاميذ مالك بن نبي ويعتبره أباه الروحي، فعمل الإثنان على نقل إحدى أمانات مفكرنا إلى العالم في إطار النهوض بأممتنا الإسلامية إلى الأمام وقيادة العالم نحو ما هو خير لها.

يعتبر مالك بن نبي من أهم الأعلام الإسلامية المجدّدة في القرن العشرين، ولا تزال آراؤه وأبحاثه تشغل الناس من حيث قيمتها الفكرية وأبعادها الإنسانية، خاصة تلك التي تناولت مظاهر التخلف وأضرار الاستعمار على الشعوب المتطلعة إلى الحرية. إلا أن كثيرا من الباحثين لا يعرف أن مالك بن نبي أديب فذ، بل روائي متميز، ولم تذكر الأبحاث والدراسات الأدبية التي أنجزت منذ الاستقلال أن مالكا اهتم بالأدب، وبالمقابل نجد عند التأريخ للأدب الجزائري أسماء ربما كتبت قصيدة صغيرة أو قصة واحدة مكنتها من الدخول إلى تاريخ الأدب الجزائري، فضلا أن بعضها لا يرقى إلى مستوى الذكر، فكثير من تلك الكتابات لا يرقى «إلى المستوى الفني أو الفكري الناضج حتى نعدّها نماذج قـادّرة على أن تكون تأسيسا حقيقيا 1»، خاصة للأدب المكتوب باللغة الفرنسية إنّ بدايات الأدب الجزائري عموما والمكتوب باللغة الفرنسية خصوصا تولّد بعد تراكم كبير للأوضاع الاجتماعية والسياسية الصعبة التي عاشها الشعب الجزائري أثناء الاحتلال، «ففي عام 1930 كان الاستعمار الفرنسي يحتفل بمرور قرن على احتلاله الجزائر، وواقع الأمر أنّه كان يظن بأنّه قد قضى نهائيا على الشخصية الجزائرية، وإن احتفاله إنّما هو احتفال بفرنسة الجزائر وإدماجها تماما 2». ولكن كانت الطبقة السياسية آنذاك قد نضجت، وصاحب هذا النضوج وعي كبير بالوضع الحقيقي

للإنسان الجزائري، وفهم دقيق لنوايا الاستعمار الجشعة، مما مهد لظهور البواكير الإبداعية الأولى في الشعر والقصة.

لمن ريادة الرواية في الأدب الجزائري؟ نود هنا أن نقف لحظة للحديث عن البدايات الفنية الحقيقية الأولى للأدب الجزائري، ونقصد العمل النثري المتكامل شكلا ومضمونا، سواء ماكتب بالعربية أو الفرنسية. بالنسبة للرواية الجزائرية المكتوبة باللغة العربية فالكمل يتفق أنها بدأت مع أحمد رضا حوحو بقصته عادة أم القرى التي ظهرت سنة 1947، بينما الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية فقد ذكر بعض الباحثين أنها ظهرت مع أحمد بن شريف في حكاية بسيطة هي (الخيال) سنة (1930م)، وآخرون أرخوا لها مع مولود فرعون سنة 1950 برواية (ابن الفقير)، وهذه الرواية البسيطة في بنائها ومضمونها عبارة عن سيرة ذاتية للمؤلف نفسه (3)، ثم ظهرت رواية (نجمة) لكاتب ياسين سنة (1956)، أما القصة القصيرة الفنية فلم تتضح معالمها وسماتها إلا بعد قيام الثورة بحيث اتجهت إلى واقع الشعب، ومن هؤلاء محمد ديب في مجموعته الأولى فــــي فــــي (المقهــــى) و(الطلســــم) (4). لكن الذي لم تذكره كل تلك الدراسات الأدبية أن مالك بن نبي هو أول أديب جزائري يكتب رواية فنية كاملة الإطار و الأدوات باللغة الفرنسية وعنوانها (لبيك حج الفقراء)، وقد نشرها سنة 1947 عن دار النهضة في الجزائر، أي قبل أعمال فرعون أو ديب أو ياسين.

وهنا وجب علينا تصحيح هذا التاريخ الذي ولأسباب مجهولة طمس معالم هذه الرواية المهمة تاريخيا على الأقل، و لا ندري لحد الساعة سبب هذا الطمس و دوافعه، و لماذا تجاهل المؤرخون للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية هذه الرواية رغم أنها رواية منشورة و لم تكن مخطوطة.

قصة ظهور الرواية، و تاريخ إبداعها:

الفضل في ظهور هذه الرواية يعود للباحث الجزائري د/ زيدان خوليف الذي ناقش أطروحة دكتوراه في جامعة السوربون (باريس 3) سنة 2006م تحت عنوان (حياة وأعمال مالك بن نبي من عام 1905 1973)، وقد أشرف على أطروحته المفكر العربي برهان غليون، وقد عثر الباحث د/ زيدان خوليف على رواية مالك بن نبي مكتوبة بالفرنسية، وترجمها مشكورا إلى العربية، ونشرت لأول مرة سنة 2009 عن دار

نعم إنها إحدى الإبداعات ليس في الأدب الفرنسي، بل في الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إلا أن أحدا لم ينتبه لذلك. نحن هنا بصدد التأكيد على أن هذه الرواية أولى الأعمال الأدبية في النثر الجزائري التي تحمل وعيا ونضجا فكريا وسياسيا وفلسفيا وإبداعا فنيا، وقد جاءت الرواية مباشرة بعد صدور كتاب الظاهرة القرآنية (سنة 1946)، ومعلوم أن (الظاهرة القرآنية) يعد من أقوى الكتب التي خلفها مالك فكرا وعلماء تحليلا وعمقا(7)، ونعتقد أن هذا الوعي كاف لكي يكتب مالك رواية بنفس المستوى الفني والتحليل العميق لما كان يراه جار في المجتمع الجزائري آنذاك. وذكر مالك بن نبي في مقدمة الرواية(أنه كتبها في غرفة فندق بين سفرتين متقاربتين وذلك في مدينة عنابة، وفي رسالة قصيرة للناشر يتحدث مالك عن روايته وكيف صنعها بالرغم من

شكلت رواية " لبيك حج الفقراء" لمالك بن نبي، حدثاً أدبيا جزائريا صرفا، فقد ظهرت الرواية في العام 1947، وهي مرحلة حرجة من التاريخ الجزائري، تقع بين فترتين حرجيتين أيضا، أحداث 08 ماي 1945، واندلاع الثورة 1954، هنا نجد مالك بن نبي، يريد أن يوجه الشعب الجزائري وجهة صحيحة، ربما بسبب الاختلافات والتناقضات التي بدأت تظهر وتعمل في تلك الفترة.

"بيك حج الفقراء" الرواية الوحيدة التي أبدعها يراع المفكر مالك بن نبي، وفيها يرسم عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية المنشدة إلى منازل الوحي،

وهو أحد إبداعات المؤلف في الأدب الفرنسي. ومكة والكعبة أنشودته وروحه والمنطلق في مشروعه الفكري والمعاد إليها في بناء جديد لحضارة الإسلام وهي تُبعث من جديد.

وظهر لنا في مقدمة الرواية أنّ مالك بن نبي يعرف أنه خاض تجربة إبداعية جديدة تحتاج إلى وعي بهذا الفن، لذلك راح يشرح للناشر، و المتلقي كيف جمع بين عناصر هذه الرواية والخطّة التي اعتمدها لتقديم أبطاله حتى قال: «وإذا كانت هذه التفاصيل المادية للأحداث معروفة لديّ بمنتهى الإتقان، فليست بالمثل فيما يتعلق بمجراها العاطفي والروحي 10»؛ فمالك بن نبي هنا ليس مثل أولئك الذين كتبوا خواطر ومروا، أو جربوا حرفة الأدب فدخلوا التاريخ، فنحن هنا أمام أديب يعرف معنى الأدب ويفهم في الرواية الشيء الكثير، وله دراية بأصول النشر والتوزيع و آليات التلقي.

قبل الحديث عن تلك المظاهر يجدر بنا أولاً أن نلقي نظرة خاطفة لأحداث الرواية، فمن حيث المكان تدور الأحداث في أحد الأحياء الشعبية لمدينة عنابة، ثم تنتقل الشخصيات إلى باخرة ستمر على ميناء عنابة لتحمل المسافرين إلى ميناء (جدة) لأداء فريضة الحج، في هذين الفضائين يقدم لنا ابن نبي شخوصه وهم عمي محمد الرجل الورع، و إبراهيم السكير، و الطفل هادي اليتيم المشرد.

أما عمي محمد فهو ذلك الشيخ التقى الطاهر الأصل ذو اللحية البيضاء، الذي يحمل السبحة دائماً، والذي يقطع صلاته في جوف الليل ليفتح الباب (منزل جماعي) أمام إبراهيم السكير الذي أزعج الشيخ والجيران بصراخه... إبراهيم السكير هو رجل جزائري بسيط يعمل فحاما يعيش ليلة رهيبة من ليالي عردياته؛ إذ يقرر في لحظة (حلم) الذهاب إلى الحج، ويدعو الله أن يخلصه من مرضه وضلاله.

أما هادي فهو ذلك الطفل اليتيم الطائش المتشرد الذي قرر هو الآخر تغيير مسار حياته بالقيام بمغامرة عجيبة وهي الذهاب إلى الحج إلى بيت الله الحرام، إبراهيم والطفل هادي يلتقيان مع حجاج كثيرين يعيشون مغامرة السفر البحرية بمرورهم على تونس ثم مصر ثم وصولهم إلى جدة أين تنتهي الرواية.

الشخصيات المحورية في الرواية و الدفع بالأحداث:

إن الوضع الذي كان يعيشه المجتمع الجزائري أثناء الاحتلال لا يمكن وصف بشاعته جراء القهر والظلم والفقر والجهل، ولوصف هذا الوضع اختار مالك بن نبي مظهرين رئيسيين هما:

1 مظهر إبراهيم الذي يتميز بخاصيتين: الأولى أنه فحام، والثانية أنه سكير.

2 مظهر هادي ذلك الطفل المتشرد الذي يقتات من مهنة (مسح الأحذية).

فعندما عاد إبراهيم تلك الليلة إلى بيته ثملا لا يقوى على الحراك، فتح له عمي محمد باب منزله الذي ما هو إلا دكان يصنع فيه الفحم «كانت تتدلى خيوط العنكبوت من خشب السقف الذي لا يمكن التعرف من خلاله على طبقة كلس الجير الممسوحة لكثرة تراكم غبار الفحم الذي صبغ المكمان هناك من الداخل، وفسي ركن منه توجد كومة فحم بجانبها أكياس مملوءة لم تفتح بعد، أما الغربال وميزان الفحم فقد أكملتا تأثيث هذا الجانب من المحل، وفي الجانب الآخر وضع صندوق فوقه الشمعة التي لا تكاد تضيء سريرا حقيرا وهو المتاع الشخصي الوحيد في هذا المتجر والذي يمثل حجرة نومه فقط، وكان إبراهيم وهو واقف وسط الغرفة بقميصه المدبوغ مع يديه بغبار الفحم؛ يجسد الروح السوداء لهذا المكمان المعـ_____ان المع_____تم (11)» .

بهذا الأسلوب الدقيق يصف لنا مالك بيت السكير، إنه باختصار شديد وضع الجزائر الأسود. ويروي لنا مالك بن نبي ببراعة ذلك التناقض الصارخ الذي يعيشه إبراهيم وانتقاله بين الثقافة الإسلامية والأوروبية، وكيف أن إبراهيم غلب عليه الإحساس بأنه ينتمي إلى المجتمع الأوروبي (12) وهي إشارة واضحة لفكرة القابلية للاستعمار التي اشتهرت بها فلسفة بن نبي. لكن إبراهيم الفحام والسكير يتغير بين عشية وضحاها إثر (حلم) رآه، حيث وجد نفسه يطوف بالكعبة، فقرر في الصباح أن يغتسل ويلتحق بسرعة بالباخرة المتوجهة إلى (جدة) على الساعة العاشرة صباحا، وبعد غسله غمره إحساس بأنه تخلص من ضيق كان يعيش في داخله... وفهم أنه كان يلعب «دور شخص بغيبض فرض عليه في مسرحية كوميدية بذيئة (13)» .

هكذا فهم ابن نبي الاستعمار، إنه مخرج لمسرحية كوميدية بذيئة؟ لقد اتخذ إبراهيم قرارا خطيرا في تغيير حياته، ليتخلص من العبودية (الفحم)، والثقافة الدخيلة (الخمير)، ويقرر ركوب التاريخ (الباخرة) للعودة إلى الأصول (الحج) والطهارة، وإن كان هذا القرار يبدو للوهلة الأولى هروبا من الواقع، إلا أنه يحمل في طياته أيضا قرار التغيير والثورة على النفس والمحيط، ورفض الواقع المرير. لقد شعر إبراهيم أنه تخلص من الماضي عندما تأمل براءة وجه زوجته التي طلقته جراء

انحرافه وهو يختلط مع وجه أمه المشرق والممتلئ بالرضا، حيث «شكلا رمزا واحدا لطريق مضيء فتح أمامه فجأة، فأحس بأنه قد نفذ بجلده من إمبراطورية الظلام(14). وهل الاستعمار غير إمبراطورية للظلام؟ وعندما يصعد إبراهيم إلى الباخرة يلتقي بحجيج كثر فيشعر أنه امتزج مع مجتمع جديد نقي يرغب في التطهير، وتتسارع الأحداث في الباخرة، وتلتقي الأفكار وتتلاقح الثقافات بين الحجيج وربان السفينة، وليحقق إبراهيم حلمه في تغيير نفسه وتطهيرها، حيث يقرر الاستقرار بالمدينة المنورة ومنها يرسل إبراهيم إلى زوجته فاطمة رسالة عن طريق عمي محمد قال فيها: «أحس وكأنني إنسان جديد وأرى من حولي عالما جديدا أريد العيش فيه إن شاء الله (15)» ثم قال: «لقد تركت الفحم ثم الخمر في بونه (16)»، وطلب من زوجته اللحاق به ليعبر لها عن حبه العميق. لا يهمننا نحن هنا هذا الموقف النهائي لهذا البطل الذي لم يبد استعدادا للعودة إلى أرض الوطن المحتل لتغييره أو التحريض على تغييره، والذي يهم الآن هو موقفه المبدئي في التغيير والرغبة في التخلص من كل مظاهر العبودية والقهر التي تمارسها النفس أو الثقافة أو الاستعمار، أهم شيء في هذا التغيير هو البحث عن المخرج، والتعبير عن عدم الرضا بالوضع، وقد وجده ابن نبي في العودة إلى الإسلام ومنابعه الصافية، ونحن نرى أن هذه الرواية جاءت امتدادا واضحا لكتابه (الظاهرة القرآنية).

أما الطفل هادي فقد كان «شعره أشعث، ورجلاه حافيتين، يرتدي سروالا كثرت ثقوبه كغالبية أطفال بونه (17)»، وهو يمثل ذلك الفقر المدقع الذي تعرفه الأسرة الجزائرية حيث تدفع الأطفال إلى العمل القهري خاصة في (الحماله) في الأسواق والموانئ، أو (مسح الأحذية) في الأماكن العمومية. هذا الطفل استطاع أن يختبئ في إحدى غرف الباخرة، لكن أحد العمال اكتشفه وقرر معاقبته «سوف يوضع في الحبس حيث توجد فئران كبيرة، ولن يخرج منه حتى العودة إلى بونه (18)». إلا أن إبراهيم وبعض الحجيج تدخلوا لإنقاذه، وقرر المحافظ بكثير من الرحمة أن يرسله إلى العمل في مطبخ الباخرة، ففرح الطفل لأنه حقق أمنيته في الذهاب إلى الحج، وقبل ذلك بليلة واحدة كان قد تراهن مع أصدقائه المتشردين حول ركوب الباخرة والذهاب إلى الحج، فقال لهم متحديا: «أنا أستطيع أن أذهب دون أن أدفع أي شيء (19)». وهكذا اتخذ هذا الولد قراره ليتخلص من اليتيم والتشرد والفقر. لقد قرر الطفل تغيير حياته هو الآخر بعدم الانصياع للقهر والقبول به، وإنما باتخاذ أي قرار ولو الفرار في باخرة الحجاج نحو

المجهول. وقد نشأت علاقة أسرية وطيدة بينه وبين إبراهيم الذي قبله كولد له، وقد علمه الوضوء والصلاة وراح يرشده ويدله على الخير، ففي الرسالة التي أرسلها إبراهيم إلى عمي محمد من المدينة المنورة ذكر فيها الطفل قائلاً: «وقد قبل أن يصبح بمنزلة ابني، إنه سعيد أيضاً إذ ترك علبة مسح الأحذية (20)». هذا هو الطفل الذي يحمل معه أمل العودة إلى أرض الوطن ويواصل رغبة التغيير نحو الأفضل، لقد طهر نفسه ويده من مسح الأحذية، وطهر قلبه من أدران الثقافة الأوروبية، وتشبع بثقافة الأسرة مع إبراهيم... إنه الأمل وكفى.

دلالات فضاءات الرواية (الزمانية و المكانية):

تدور أحداث الرواية في مدينة عنابة (بونة إبان الحقبة الاستعمارية)، وتضع القارئ آنذاك وحتى اليوم في الأجواء التي كان يعيشها الإنسان الجزائري البسيط في كل مدينة جزائرية كعنابة، حيث مؤثرات النمط الأوربي قد طغت على الجو العام. فالعم محمد والطفل هادي والسكير إبراهيم وزوجته كانوا يمثلون الشعب الجزائري بكل فئاته، فالعم محمد يمثل الأصالة المتجذرة في الأمة، ويمثل إبراهيم، مع انحرافه عن الطريق السليم، الجيل الذي احتك وعاش المجتمع الأوربي في الجزائر، حيث كان في حيرة من أمره. فما تعلمه صغيراً وغاص في أعماقه لا يتناسب بما يطفو على السطح مع أحاسيسه العميقة. إنه الفراغ الذي يعانيه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية، لكنه استدرك الأمر وأدّى إبراهيم فريضة الحج، مما يدل على أنه مهما حاد المؤمن عن سواء السبيل، فإن إخلاصه لا بد أن يعيده إلى الهداية وإن طال زيغه. وظلت زهرة زوجة إبراهيم على ما عانتها من ويلات وعريجات زوجها الليلية تكنُّ له كل الاحترام، وتتمنى له الخير وتعامله كأنه أخوها أو ابنها. ومسبحة أم إبراهيم كانت تمثل لها الرصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال. ويتوب إبراهيم السكير، والطفل هادي يتحدى رفاقه ويصعد إلى المركب ليحج هو الآخر بعزيمة أقوى من أن تقهر. وتتميز الرواية بسلاسة الأسلوب في سرد الأحداث وغناها بعنصر التشويق والتكيت والطرافة.

تتناول الرواية مختلف شرائح المجتمع بمختلف مستوياتهم وخلفياتهم وجنسياتهم (على الرغم من أن الجزائر هي بلد الحدث) وتوثق أسلوب حياتهم في حقبة من الحقب -بداية القرن العشرين الميلادي- لتبرز قصة أعلى رحلة في قلوب المسلمين وهي رحلة الحج في ذلك الزمان.

رحلة الحج التي تميزت ببساطتها وعفويتها تجعل من المسلم متشوقاً لعيشها وتجربتها كما جربها أبطال الرواية، إنها رحلة دينية للتطهير و التغيير مليئة بالمشاعر والأمل.

لم الهجرة إلى الحجاز بالذات؟

فمن حيث الاتجاه الجغرافي، أراد مالك بن نبي أن يكون نحو المشرق، أي إلى الحج، والحج كعبادة له معاني كثيرة، غير أن أهمها في الرواية، هو أمرين اثنين:

- التطهر النفسي للبطل إبراهيم

- حضور مؤتمر المسلمين الأول ، والاتحاد مع الأمة التي تأتي من كل بقاع الأرض.

فالحج ليس لغسل العظام من الأدران كما هو متعارف عليه جزائرياً، ولكنه حدث كتغيير عميق في شخصية إبراهيم، الرجل المخمور طوال الوقت...والذي ينام في كوخ الفحم، بسبب رفض زوجته وأهله وجيرانه له.

لقد كان حلم مالك بن نبي وزوجته الفرنسية المسلمة أن يستقرا في الطائف بعد تخرجه من مدرسة المهندسين بباريس، وعبر عن هذه الرغبة في مذكراته بصورة متكررة: «تأكدت لدي فكرة السفر إلى الحجاز، فزاراً من العيش في أرض استعمار أو في أرض مستعمرة؛ لأنني سئمت فيها الوجوه والآفاق(21)».

ويقول في موقع آخر: «وبدأت أفكر جدّياً في الهجرة إلى الحجاز لأستقر بالطائف(22)»، وكان لكل منهما مشروع خاص لخدمة هذا البلد، تقوم زوجته بالزراعة وتربية الحيوانات على الطريقة الغربية وتعليم الخياطة ونسج الإبرة للبنات، أما مالك بن نبي فيشتغل بتجارة العطور الفرنسية أو تحويل بقايا أضحية العيد إلى أسمدة، وتحويل الحرارة الشمسية إلى طاقة.

لما تحمس مالك بن نبي للهجرة إلى الحجاز، عرفت أسرته كلها تقريباً الحجاز وأدت فريضة الحج، وكان ابن نبي حريصاً دائماً ومنذ صغره على سماع أخبار البقاع المقدسة، وقد أورد في مذكراته اللحظات السعيدة التي قضاها إلى جانب أمه التي كانت تقص عليه ما شاهدته في مكة المكرمة.

بالإضافة إلى العامل الديني الذي يحث المسلمين على الحج ودراسة سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم، والصحابة - رضوان الله عليهم - التي وقعت معظم أحداثها في شبه الجزيرة العربية، وتأثره ببعض المثقفين الذين درسوا وعاشوا في الحجاز كما ذكرنا من قبل، كان مالك بن نبي يرى

في الدولة السعودية الفتية كياناً سياسياً قائماً على المجتمع الإسلامي الذي كان ينشده، وتجسيدا على أرض الواقع للدعوة الوهابية في بعدها التجديدي التي آمن بها، فلا شك أن من طبيعة الإنسان أن يسعى لدعم الدولة القائمة على الفكرة التي اعتقد بها وخدمتها، وخاصة أن الملك عبد العزيز كان يريد الاعتماد أكثر على الإطارات الإسلامية في بناء دولته الجديدة حتى يتجنب الأخطاء والمشكلات التي وقع فيها الملوك العرب الذين استقدموا العلماء والمهندسين من أوروبا، وكانت النتيجة تضخم الديون وبقاء التخلف، وفتح المجال للغزو الاستعماري في كل أشكاله.

لم تكن رغبة مالك بن نبي للإقامة في الحجاز شعوراً عابراً، فقد قام بكل الإجراءات الإدارية لتحقيق حلمه وتحويله إلى واقع ملموس، لكن القنصلية المصرية بباريس رفضت أن تمنحه تأشيرة للمرور على ميناء السويس، فكانت بحق صدمة عنيفة له: «إن الاستعمار يستطيع أن يتمسك في بعض الحالات بمظاهر المشروعية؛ لأن خونة من بين العرب ومن بين المسلمين يتولون الأمر، للقيام بالدور الذي لا يسمح له به كبرياؤه في تلك اللحظة (23)»، وازداد وقع الخيبة حين علم أن أحد زملائه من يهود أوروبا الشرقية تحصل على التأشيرة المصرية بدون عناء، واستقر عاماً في مصر. لم يتمكن مالك بن نبي من الهجرة إلى الحجاز والاستقرار مع أهله في الطائف، وتحقق جزء من حلمه في الخمسينيات عندما أدى فريضة الحج، وحرص على العودة إلى بيت الله الحرام في الستينيات وبداية السبعينيات من القرن الميلادي الماضي.

تأويل الدلالات الرمزية لعناصر القصة و إسقاطاتها على أفكار مالك بن نبي:

- ويشكل البطلان إبراهيم و هادي فكرة (القابلية للاستعمار)؛ فإبراهيم صورة لجيل كامل كان ضحية للاستعمار، تُلطخ بأدرانه، وأخذ في التشكل وفق أهوائه، بينما يمثل الطفل اليتيم (الهادي)، النتيجة الأكثر كارثية بسبب فقدانه للمحضن الطبيعي وهو الأسرة، وغرقه في مستنقعات الشوارع، وعمله كمنظف أحذية كعادة الأطفال في حقبة الاستعمار.

كلا البطلين (إبراهيم والهادي) عملا عملا متشابهاً، فإبراهيم الذي يبيع الفحم الأسود، واليتيم الذي يعمل في مسح الأحذية باللماع الأسود، كلاهما، يمثل (رمزاً للانحطاط) الذي وصل إليه جيل إبراهيم وجيل الهادي.

- إن استخدام السفينة للحج، وهي وسيلة تكنولوجية ، يقوم ريان فرنسي بقيادتها، يشكل فرقا جوهريا في فكر مالك بن نبي، فكأنه لا يعترض هنا على الاستعمار، أو الغرب عموما من الناحية التكنولوجية، بقدر ما يركز على تلك الحالة النفسية والفكرية السائدة لدى البطلين.

- نلمس في الرواية أيضا (جانب الفعالية) لدى مالك بن نبي، حيث تغير إبراهيم بسرعة كبيرة، واستطاع أن يقوم بكل إجراءات الحج في يوم واحد، كما استطاع أن يغير الهادي الطفل اليتيم، ويرشده إلى الدين الصحيح بصورة سلسلة وبسيطة، وأكثر من هذا ، أستطاع أن يحول أسره في السفينة بسبب صعوده عليها بصورة غير قانونية، إلى حالة إيجابية تماما، فكان الطفل يحضر الماء للحجيج، والقهوة والأغطية وغير ذلك، في نفس الوقت الذي تعلم فيه الصلاة وأمورا دينية كثيرة، وهو في طريقه إلى الحج، فتحوّلت أزمته إلى حالة صحية تماما، بسبب إبراهيم.

- نلمس أيضا (الارتباط العميق بالجماعة) بحيث تشكل قيمة كبيرة وعميقة في شخصية إبراهيم، فهي ترفضه حين ينهار أخلاقيا، وتحمله المسؤولية، وتقف منه موقفا حاسما، وحين يستعيد إبراهيم انتماؤه، فإنها تتغير بسرعة شديدة، (قفة الحلوى، الغداء، الهدايا، سبحة زوجته التي ترسلها إليه وهو يهم بالمغادرة....)

فإبراهيم يستعيد انتماؤه للجماعة بمجرد أن يستعيد انتماؤه الديني والحضاري؛ غير أن هناك نقطة لا بد من التطرق إليها، فإبراهيم يستعيد انتماؤه عن طريق حلم يراه، وهو نائم في كوخ الفحم الوسخ، مما قد يثير الدهشة حول كيفية الإفاقة النفسية والحضارية أو الدينية للبطل، فمالك بن نبي يركز كثيرا على الفعالية والفكرة والعقل ، بينما نجده في الرواية يركز على ا لحلم كوسيلة للإفاقة والعودة.

- (دلالات الحلم) ربما ستحل هذا الإشكال؛ إنّ الحلم، هنا لم يستخدم بتلك الصورة الأسطورية ، بقدر ما استخدم ك رغبة نفسية عميقة في التغير، إنّهُ المعبر إلى اللا شعور و الأنا السفلى وحين تظهر رغبة التغير في الوعي، يجسدها الحلم، إن إبراهيم لا يبحث لها عن تأويلات أو تفسيرات كما هو المؤلف في الثقافة الجزائرية، بل يبحث عن تجسيدها وتحقيقها في واقعه، ويعمل المستحيل من أجل ذلك.

وهذا ما ينفي الإعتباطية أو البساطة التي ربما قد تفسر بها كل تلك التغيرات التي تبدأ في الحدوث في نفسية إبراهيم. فالحلم لم يتحقق بصورة قاهرة ومعجزة كما نتصور في كثير من الأحيان، ولكنه يتحقق عبر المعاناة.

- تظهر لنا الرواية لنا أيضا **(الارتباط الوثيق بين شعوب المغرب العربي)**، فنحن لا نلمس أية اختلافات بين الحجاج وهم في السفينة، بل إننا نجدهم يتشكلون في جماعات لأغراض التنظيم، جماعات منظمة بقوة، وحين يظهر ما يهدد هذه الوحدة والتنظيم يظهر لنا أيضا ذلك الصوت القادر على رد الشبهات، فحين يأتي بحار، وهو شخصية ثانوية، ليحاول الطعن في قضايا دينية راسخة ومتجذرة عميقا في الشخصية المسلمة، يظهر صوت فكري قوي، ربما هو صوت الكاتب نفسه، نظرا لأنه لم يظهر قبل ذلك ولا بعده في الرواية، ليدافع عن الدين بشكل قوي جدا.

- لم يكن هدف إبراهيم البطل الحج فقط والعودة إلى الوطن، بل إنه يختار البقاء هناك بائعا للقهوة للحجاج من كل بقاع العالم، مما يدلنا على الرغبة القوية في **(التعارف وربط الأواصر مع الأمة)** بشكل عام، وحين يتمكن من جمع المال اللازم، يرسله لزوجته كي تلحق به، وهنا يحقق إبراهيم هدفه من الحياة.

- لقد استطاع مالك بن نبي أن يصور لنا حياة مسلمة مختلفة تماما عما هدف إليه الاستعمار، واتجه إلى النواحي الإيجابية المتبقية من الحياة الجزائرية، وأعطاهم دفقا قويا، وحياة جديدة للعبور والنجاة والعودة إلى المحضن الحضاري الصحيح، وهو الأمة المسلمة.

يعترف صاحب الرواية في رسالة له أول الكتاب أن هناك أخطاء تقنية قد لا يكون هناك مفر منها خصوصا وأنه كتب القصة في عجالة، في غرفة فندق بين سافرتين متقاربتين جدا، ولكن هذا يبرز قدرته العالية على الكتابة خصوصا عندما تقرأ الرواية وتلمس أحاسيس ومشاعر فياضة بها ومعاني عميقة عمق الفكر الذي يحمله مالك بن نبي.

وخصوصا حين نجد في الرواية سلاسة عظيمة في الأسلوب تترك تنتبع القراءة بنهم لا تستطيع عنه التوقف، عدا عن ذلك التشويق الذي ميزها حيث تذهب بك الأفكار إلى أين يريد الوصول، ثم هي المشاعر تلعب على أوتارها كلمات بن نبي وعباراته، بين تلك المشاعر الإيمان التي تدمع لها الأعين، وكذلك تلك الدعابات والنكت التي حملتها الرواية والتي عبرت لي في كثير من الأحيان عن هذا المجتمع وطيبته وبساطته وتلقائيته المعتادة.

- وفعلًا جاءت بداية الرواية التي ترسم عمق الروح الجزائرية وشخصيتها المنتمية إلى تراث الثقافة والحضارة الإسلامية كما قال مالك بن نبي تعرف القارئ الأجنبي بشعيرة الحج وفضلها في المجتمع المسلم، ويعرف أيضًا بالفلكلور الجزائري، والعادات والتقاليد في هذا البلد، وخصوصًا الذهنية الجزائرية في تعاملها مع أعظم شعيرة في الإسلام، وأكبر النسك التي يتقربون بها إلى الله وتترك فيهم من آثارها الروحية العظيمة، ما يجعل كل الناس تحترم الحاج.

- تروي الرواية قيمة الحج في نفوس المسلمين عامة، كبيرهم وصغيرهم، غنيهم وفقيرهم ، القادر منهم والضعيف على حد سواء، لا أحد يرفض التفكير به من منطلق عدم القدرة، بل الكل طامع في رحمة الله الواسعة. وأنت تقرأ الرواية تحس بتلك المعاني الإيمانية التي عرف المفكر بن نبي كيف يوظفها بطريقة روائية لم يستعملها قط، بل إنه لم يستعمل أبدًا في كتاباته الأسلوب القصصي عدا مذكرات شاهد على القرن.

- رواية لبيك حج الفقراء تحكي حج الضعفاء إلى الله المؤمنين التواقين لرؤية قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والدعاء عنده، فبين إبراهيم الرجل السكير وفي لحظة من لحظات عريته حيث شاهد العبارة الناقلة للحجاج ترفو بميناء عنابة أبي إلا أن يزور بيت الله ويغير حياته البائسة تلك، وبين هادي الطفل الفقير من لحظة حديثه مع أصحابه المشردين أمثاله حول إمكانية ذهاب الفقراء إلى الحج، راهنهم فيها على أنه يستطيع حج بيت الله، هناك ما يجمعهما وهو ذلك الإيمان القوي بالله، وتلك الرغبة الشديدة لرؤية بيته الحرام وقبر رسوله الكريم. وفعلًا كان ذلك وأصبحت صديقين.

- في الرواية نجد تجسيدا لبعض الشخصيات المسلمة، زهرة هي مثال الزوجة الجزائرية والمسلمة عموما، تلك المطيعة لزوجها والمحبة له ، الوفية حتى لو كان سكيرًا كحال إبراهيم، إلا أنها تريد له الصلاح والخير دائما، كما أنها مثال المرأة المغلوب على أمرها أمام زوجها، ومع ذلك ظلت متمسكة بوفائها له ولوالديه لأنهما كانا في يوم من الأيام أفضل سكن لها.

-أما عمي محمد وزوجته وجيران إبراهيم جميعا فيمثلون حب المجتمع الجزائري للفرد المحترم، الذي يعيش محافظا على أخلاقه ودينه، وهو ما يلاحظ من تعاملهم مع إبراهيم أثناء

عربداته، ونقارن تلك الأيام بيوم واحد فقط حين تاب وأحب الذهاب إلى الحج كيف تعاملوا معه باهتمام وحب كبيرين.

- معان كثيرة أخرى تحملها الرواية تعبر عن الروح المسلمة، مثل الغيرة على الدين ولو من سكير في أحد المواقع بمدينة بونة، والغيرة عليه أثناء الحديث مع من هم من غير أهل الإسلام في موقف آخر في العبارة، كما يبرز مالك بن نبي أيضا ذلك الصراع بين الحضارات في حوار قصير بين حاج مثقف وبحار أراد أن يتطفل على الحجاج ليعرف ما يشعروا به.

- كما أنه في الرسالة الأخيرة التي بعث بها إبراهيم لعمي محمد امتلأت بالمشاعر الطاهرة للنفس المؤمنة، هذا هو إبراهيم الذي كان سكيراً، ولكنه اليوم تاب ولا بد من التغيير في حياته، حتى يستطيع أن يتغير بحق فقد قام بالهجرة إلى المدينة المنورة، لتحمل الرواية بذلك أيضا واحدة من أسس التغيير.

قراءة رواية " لبيك " في ضوء إنتاج مالك بن نبي الفكري و الفلسفي:

إضافة إلى كون أحداث كثيرة تمرُّ على مالك بن نبي لكثرة احتكاكاته بالبلدان العالمية المستعمرة منها والمستعمرة، تجعله يشهد مواقف كثيرة من مثل هذه، لكنّه لم يقصّها علينا في روايات، فنحن قد عهدناه من خلال كتبه ، وفي طرحه لأفكاره يسوق أمثله الكثيرة من الواقع، ما أمكن لها أن تحدّد كثيرا من مواقفه، فما لذي جعله يختار هذه الأحداث بالذات، موضوعا لرواية أمكن لها أن تتخطى الواقع لتصل إلى ما وراء الواقع وتتخطى المباشر لتصل إلى المجرد الذهني أحيانا والفلسفي ؟، وما هي المعاني العميقة التي يمكننا أن نتنبأ من خلالها كيف انطلقت رؤية بن نبي الحضارية و هو يدخل إلى عالم التفكير والفلسفة في الإنسان والنهضة والحضارة؟

إذن فالسؤال الذي انطلقنا منه بدايةً، ليس من باب الاستفهام الساذج أو من باب المماحكة الكلامية وإنما هو من باب المعرفة الأعرق بهذا العمل الذي يؤسس ربما للغة جديدة لم نعهد بن نبي يتحدث بها. ولربما قد يكون استيعاب أجوبة تلك التساؤلات التي تفرّعت عنه، خير معين لنا في افتكاك المغزى الذي انطلق منه بن نبي لحبك هذه الرواية الفاتحة لمشروعه الحضاري.

أول ما يكسب قصّة «لبيك» أهميتها ضمن مشروع بن نبي أنّها كانت من بواكير أعماله، بزغت في أعقاب «الظاهرة القرآنية» في لحظات إشراق إبداعاته لترسم الطريق والاتجاه بعصر جديد يكتبه الجيل القادم، الذي بقي متشبّثاً بأصالته يستبطن البواعث في قيم الرسالة مع «الظاهرة القرآنية» التي كانت -كما يقول بن نبي في شهادته على القرن- أول إنجاز علمي وأدبي مقاوم للاستعمار مؤسس لمفهوم البداية في أفق النهاية، باعتبارها المنطلق في البحث العلمي المفضي إلى النقّة بالمصدر العلوي المطلق للقرآن الكريم، الهادي لنور الاستقامة في شخصيّة المجتمع كما في بناء عالم جديد بعد انهيار عصرنا الحاضر، هنا تأتي بعدها «لبيك» خطاباً جديداً لرؤية المسلم في مساحة الإنسانية كما يصفها بن مالك الروحي، وفتحاً مبيناً لـ«سلسلة مشكلات الحضارة».. العمل الذي اعتبره بعض القراء غريباً عن الأفق الوضّاء الذي خطّه لـ«الظاهرة القرآنية»، إلا أنّه جسّد وبكل عمق آمالها ومراميها وبرهن على صوابيّة وفاعليّة أفكارها، مستمّدة مجراها من واقع الأحداث على السّاحة العربيّة في العالم الإسلامي، الذي حرص مالك على تشريحه بمبضع الطّبيب، الذي يحترم مريضه دون أن يشفق عليه فيهلكه، مستعينا بمختلف التحاليل التي يجريها على الأحكام التي يصدرها المجتمع على تفسير الأحداث، ليحدّد نوع المرض الذي يعانيه المجتمع، ومكانه ومصدره، ويحلل أسباب نهضته أو انحطاطه من خلال «سلسلة مشكلات الحضارة».

في هذه النقطة تحديداً يعود الذي اقتبس من النّبوة على بدء ليسأل مجدداً لكن هذه المرّة بنموذج عمليّ عن العامل الذي يحدث تغييراً مفاجئاً ويسبّب نهضة أو انحطاط مجتمع؟، سؤال سوف يتكفّل بتفصيل الإجابة عنه نظرياً أول كتاب سيصدر بعد هذه الرواية، محدداً من خلاله «شروط النهضة»، لكنّه قبل ذلك اختار بن نبي «لبيك» أمثلة ونموذجاً يجيب بها عن السؤال بشكل عمليّ، ليجلي لنا هذا العامل انطلاقاً من ذلك النّداء العجيب الذي ينبجس منذ أربعة عشر قرناً داخل أعماق النفوس المظلومة المنتهكة الحقوق، ليؤثر غالباً في البُسطاء من النّاس، الضّعفاء إلى الله الفقراء إليه، الذين يعدمون سبل الوصول إلى أداء هذه الشّعيرة، وتجعلهم يحنّون كلّما سمعوا نداء «لبيك» إلى وادٍ بعيد غير ذي زرع، حيث ترك إبراهيم الخليل ذريّته ليعبدوا الله.

هذه هي الصورة التي كانت حلماً رآه بطل الرواية (إبراهيم) عندما وقف مع الحشود التي تنتظر عودة الحجيج وشاركهم دعواتهم وقد غمره دون يعي الشعور الذي يخالج ذلك الحشد، لأنّه كان

حينها مخمورا.. وهو يرى نفسه في لباس الإحرام يطوف في الكعبة، في ذلك المشهد الذي أعان على تصويره وهو يؤدي مناسكه، مخيالاً يعتبر جزءا من ميراث عائلته المسلمة، أعاد إليه تلك الروح الصوفيّة التي ورثها عن أسلافه.. حلم تركه في حيرة من أمره، حين انتهى بمجرد استيقاظه من النوم ليجد نفسه سكيما لازلت الأنفاس الأخيرة للخمر تتبعث من فيه، لكنّ هذا الحلم سيشهد تحقّقه في الواقع بعد التجربة التي عاها في دواخل نفسه التي أنبتة على الآثام التي تركت تلك التعرجات في حياته.. إنّها تجربة التغير التي ودّع من خلالها تلك الحياة المادية المزرية التي كان يعيشها بعدما اقتلع قناع (بوقرة) الذي لا يحتمل، لكي يعود بكل بساطة إلى شخصية (إبراهيم)؛ ثم إلى شخصية (الحاج إبراهيم)، بعد قراره في خوض تجربة الحج إذ سيشهد فيها منفع له، فتكسبه شعورا بالتغير النفسي الذي أحسّ به وهو يصعد في عبارة الحجيج التي اعتبرها منقذته من عالم القذارة الذي تنصل منه وكأنّه تخطى مع العتبة الأولى عتبة عالم جديد مطلقة زفرته "الحمد لله".

هذا ما تحكيه الرواية ببراعة وإتقان، لبيدع راويها في التصوير الرمزي بطريقة أو بأخرى حال الأمة الضائعة، وهي تتلمس طريق الهداية، وتخطو خطوات البداية بصفاء نية وإصرار على الوصول.. إنها الخطوات الأولى لتبشير الصبح الجديد الذي يأمله مالك بن نبي للعالم الإسلامي بعد أن نزع عنه لباس الاستعمار، والذي حرص من خلال فكره في البحث عن كل ما يمكن له أن يتلقفها لينهض بها من كبوتها المزمنة، لتدخل من جديد في مضمار الحضارة.

ف(العمّ محمد) رمز يمثّل الأصالة المتجذّرة في الأمة، ويمثّل (إبراهيم) مع انحرافه عن الطريق السليم، الجيل الذي احتكّ وعاش المجتمع الأوربي وتورّط بمعطيات حضارتهم وتداعياتها، التي تركته في حيرة من أمره. فما تعلمه صغيراً وغاص في أعماقه لا يتناسب بما يطفو على السطح مع أحاسيسه العميقة وما يحركه فيه مخياله. إنّ الفراغ الذي يعانيه كل امرئ غير مقتنع بعقيدته ومقوماته الأخلاقية أو كان قد تلقّنها عن طريق العادة والتقليد، لكنّه استدرك الأمر وأدّى إبراهيم فريضة الحج، وهو ما يدلّ أنه مهما حاد المؤمن عن سواء السبيل، فإن إخلاصه لا بد أن يعيده إلى الهداية وإن طال زيغ.

كما كان للنشئ المتمثّل في شخصيّة (هادي) ضوءاً خاصّ اهتمّ بن نبي بإلقائه على شريحة من المجتمع ما فتى ينادي بأن تكون بمثابة رأس الحربة في كل عمل نهضويّ، في مشهد أراه جديرا

بالقراءة العميقة والمتأملّة، وهو يصوّر لنا تلك العزيمة التي دفعته لينقل نفسه من ولد مشاغب - يراهن أصحابه المشردين أمثاله على أنّ الفقراء بإمكانهم أداء شعيرة الحج- إلى فتى يملك كامل الاستعداد ليصبح رجل حضارة، وهو ما استطاعت أن تترجمه تلك التّهيئة التي أطلقها (هادي) متأسّفاً على انقضاء أول صلاة له كان يريدّها أنْ تدوم إلى الأبد، كما في انتظاره لحلول وقتها كالتلميذ الذي ينتظر موعد الاستراحة بفارغ الصبر فنموذجي هادي أو إبراهيم؛ يبيّنان وبعمق كيف أن رجل الفطرة حين يتحرّك ويأخذ طريقه، لكي يصبح رجل حضارة، فإنّه لا زاد له كما بيّنه تفصيلاً مالك في «شروط الحضارة» سوى الثّراب، والوقت، وإرادته لتلك الحركة، الإرادة التي بدت بوضوح مع شعور إبراهيم وذلك الخوف الذي انتابه عند رؤية عمال مراقبة العبّارة، من أن يكون غير مستوفيا للشروط فيحرم من رحلة التغيير التي صمّم على اقتحامها.

ولم ينس مالك أن يشير إلى وضع المرأة الجزائرية، ف(زهرة) زوجة (إبراهيم) وعلى ما عانتها من ويلات وعريدات زوجها الليلية وسلوكه غير السوي الذي كان يعذبها خاصة بعد انتقال والديه إلى الرفيق الأعلى، إلّا أنّها بقيت تكلّم له كل الاحترام، وتتمنى له الخير والهداية ، وفاء لوالديه اللذين أوصياها بابنهما وهما على فراش الموت، إلّا أن تماديه في سلوكه بصورة مستمرة، جعلها تحسم حياتها التي لا تحتل وتترك أمره للعم محمد ويتولى الاهتمام به. كما كانت "مسبحة أم إبراهيم" تمثّل بالنسبة لها الرّصيد الثقافي المتوارث عبر الأجيال،..ما جعلها تحتفظ بها وترسلها لإبراهيم عندما قرّر الحجّ، لتعيد إليه ذلك المخيال المتوارث كلما استشعر بحبّاتها بين يديه. "المسبحة" التي أعادت إلى إبراهيم نداء الذّكريات العائلية التي حفرت في نفسه قيم دينه وأمته ومجتمعه.

ناهيك عن الأبعاد الاجتماعية للرواية، والتي قد نلمسها في «شبكة العلاقات الاجتماعية» التي تعرّف عليها إبراهيم في المركب، نجد فيها مختلف شرائح المجتمع بمختلف مستوياتهم وخلفياتهم وجنسياتهم، وتوثق أسلوب حياتهم في حقبة من الحقب، بالرغم من أنّ روايته جزائرية في أغلب أحداثها، هذه الشبكة التي اهتم الكاتب بإتقان وحرص على إبرازها وإظهار مدى التعايش الذي كانت عليه، في مشاهد تصوّر لنا مدى صفاوة ونقاء شبكة العلاقات الإنسانية في عفويّتها وبساطتها، كما أراد أن يبديها لنا من خلال ما كان يقصّه علينا في شهادته، تلك الرّوح الجزائرية التي لم تختفي من كتاباته فهي دائماً حاضرة وإن كان يكتب للعالم الإسلامي لكنه ظل نموذجاً في

أصالته ووطنيته، حين استهل أدبه وتراثه الفكري بـ«لبيك» واختتمها بـ«مذكرات شاهد على القرن» المترجمين لروح بن نبي الجزائرية .

وضمن هذه الشبكة الاجتماعية لم يفوت بن نبي فرصة تصوير مشهد يلتفتا فيه إلى «عقيدة الآخر، و حوار الأديان»، فالحوار الديني الذي دار بين إبراهيم بثقافته الضحلة مع البحار الفرنسي -الذي تطفل على الحجاج، بفضول دفعه ليعرف شعورهم- ثم تكفل بإنقاذ مساره أحد المثقفين الجزائريين بعد أن فقد إبراهيم القدرة على ذلك، وكأنه يريد أن يعبر عن غيرته في الدفاع عن دينه ولو بأجوبة عفوية. فعكس هذا المشهد كما يرى فيه مترجم الرواية (زيدان خوليف) ذلك الجوّ الودّي المتفاهم بين المسلم ومخالفه في عقيدته، على اختلاف المبادئ ووجهات النظر، لكننا نجده كذلك يعكس من جهة أخرى أهمّ ما شغل ذهن مالك آنذاك، وهو مشهد شباب الإسلام الذين استهوتهم المناقشة الخطيرة بين الدّين والعلم، الذي كان زبدة ما اهتمّ به في كتابه «الظاهرة القرآنية»، فاستخلص فيه من هذه النقاشات نتائج وثيقة أراد تبليغها للضمان الأخرى.

كما أنّه ومع جدية واستعجال الرسالة التي يودّ أن يبعثها بن نبي إلى قارئه، إلا أنّها لم تخلُ من بعض التّكثيف والطّرافة التي هي خاصيّة امتاز بها الجزائري النّبسي. التي تعبر في كثير من الأحيان عن هذا المجتمع وطيبته وبساطته وتلقائيّته المعتادة.

أمّا ذلك الجزء الآخر من شخصيّة بن نبي الذي يبيده حيناً ويخفيه أحياناً، والذي يتجلّى في تلك أحاسيسه ومشاعره الفيّاضة والمعاني العميقة عمق الفكر الذي يحمله؛ وهو ما يظهر أنّه ليس كاتباً فحسب، أو عاملاً في مكتب مكباً على أشياء خادمة من الورق والكلمات، كما يقول عنه صديقه الدكتور عبد العزيز خالدي، ولكنّه رجل شعر في حياته وتجربته الخاصّة بمعنى الإنسان في صورتيه الخلقية والاجتماعية، إذ مرت في أدب بن نبي حين منحها روحه ودمعه في المرحلة الأولى من شهادته، وهو ربما ما يتجلّى فيه بوضوح عندما سمع حديث والدته وذكرياتها عن الحجّ، دون أن تكون له القدرة على حبس دموعه فكان يتظاهر بالعطش ليخرج إلى الشّرفة فيطلق العنان للدّمع، لتبدو هذه الأحاسيس هي التي قدّمت مادّة وموضوع روايته، لتكون عن شعيرة «الحجّ»، تلك الرّحلة الرّوحية، التي تعبّر عن هيام المسلم بالحرم، التي أرهف لها إحساسه وأمّه تحكي له عنها، كما ينقلها لنا في شهادته، واصفاً طريقتها في سرد أحداث تجربتها في ممارسة هذه الشّعيرة التي هي جزء لا يتجزأ من المخيال الذي أراد تصويره في الرواية، قائلاً: «فقصّت علي قصة

حجّها، بكل ما تحتاجه القصّة من تنوير في بعض نواحيها، وتظلم في نواحي أخرى، كما تتطلب قصّة يلتقي فيها عناصر اللاّهوت والنّاسوت..وما قصة والدتي إلا إحدى القصص التي يتناولها الحجاج كل سنة يحملونها إلى الآفاق الإسلامية».

كما كان يهدف من خلال هذا العمل كما أخبر به ناشره الفرنسي، وضع القارئ الأجنبي في أجواء الحجّ في الإسلام، وهو ما أبداه في روايته من فضول البحّارة الفرنسي وتطلّقه عليهم بغية اكتشاف الشعور الذي يستقبلون به أداء شعيرة الحجّ، كما كان الأمر نفسه حين أحسّ واستشعر ضرورته لما وجد زوجته الفرنسيّة تنتظره بفارغ الصّبر وهو عائد من تبسة ليقصّ عليها قصص حجة أمّه.

أمّا المنهج الذي سلكه في الرواية، فنجد أنه يستمد أصوله وجذوره من تأمله الطويل في (غريزة الدين في فطرة الإنسان)، فمن خلال هذا المنهج أمكن لمعانة بن نبي أن تستلعن لنا وتقف ماثلة أمامنا عبر روايته، فكان ليبيدي لنا من خلالها آثار فكرة قريباً ماسيعلن عنها في أول كتاب يصدر له على أعقاب هذه الرواية، معتبرا أن الإنسان المسلوب الحضارة، عديم القدرة على الإنجاز الحضاري إلا إذا تغيّر تغييراً جذرياً، نابعا من إرادته الحرّة، ثم يخلص الرّجل في تحليله للفكرة الأساس هذه في بناء الحضارة، وديمومتها بأن الفكرة الدينيّة تشترط سلوك الإنسان حتى تجعله قابلاً لإنجاز رسالة، أي حضارة، لكنها لا تكفي بالوقوف عند هذا الحدّ، فهي تحلّ لنا مشكلة نفسيّة اجتماعيّة أخرى، ذات أهميّة أساسيّة تتعلّق باستمرار الحضارة، فالمجتمع لا يمكنه مجابهة (الصّعوبات)، التي يواجه بها التّاريخ كمجتمع ما لم يكن على بصيرة جليّة من هدف وجوده.. وهو ربما هو مافتح إمكان إشراق عنوان «أثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة» في فصل خاص في كتابه الموسوم بـ«شروط النهضة» في طبعته الثّانية التي جعلها خصيصاً له؛ إذ نجده يفصل هذا الدور للدين في نشأة الحضارة وديمومتها، معتبرا أنّ دورة الحضارة -أية حضارة- لا تتم إلا حينما تدخل التّاريخ فكرة دينيّة معينة، وهو لا يقف عند هذا الحد بل نجده يعمق فكرته، وتحليله أكثر حين يبيدي المغزى التي يبتغي استهدافه من خلال الرواية، وهو يحرص على تأكيد مؤثر الدين الذي يغيّر النّفس الإنسانيّة، حين يرى كما يقول في الكتاب «أنّ المسألة هنا هي أن نوضّح للقارئ كيف يتاح للفكرة الدينيّة أن تبني الإنسان حتى يقوم بدوره في بناء الحضارة (24)».

لكن ما يبدو غريباً لبادئ الرّأي هو أنّ الفكرة الشّائعة التي استحوذت على فكر بن نبي وجعلت تعتم على ما بقي من أفكاره هي اهتمامه الشديد بـ«البحث عن أسباب الانحطاط والقابلية

للاستعمار»، فكيف يحرص هنا في روايته على الاهتمام والحرص بمسألة الهوية وبالذات ما يمثله الفلوكلور الشعبي للمجتمع الجزائري كما أخبر به ناشره؟! وكيف يعوّل عليها وهو الذي اعتبرها في نفس الوقت كما نعرفه وفي كثير من الأحيان من أسباب الانحطاط، وكانت أكثر ما وصف بها إنسان مابعد الموحدين، الذي ينبع جزء منه أي الانحطاط من تبعات تلك الهوية التي يمثّلها هذا الفلوكلور، متمثلاً في ذلك التراث الوثني الذي قد تبقى في أعماق الضمير الشعبي، الذي شكّله القرون المليئة بخرافات الدراويش؟!

ربما سيكون أكثر ما يعيننا على إزالة هذا الإشكال هو الإمساك بالخيط الماورائية للرواية مع محاولة الربط بين القضيتين (التمسك بالهوية من جهة ونبذ القابلية للاستعمار وأسباب الانحطاط من جهة أخرى) من خلالها على ضوء مشروعه.

لذلك فإننا سنجد ومن خلال الرواية أن بن نبي لم يصب اهتمامه بالهوية، بقدر انشغاله وبحثه أكثر في أسباب الانحطاط، إذ فيها تطرّق بحسّه السليم ومبضعه الحذر إلى القيم والتراث الذي يحرك مجتمعا كالمجتمع الجزائري ويبيّن كيف يمكن لنا من خلال ذلك العالم الثقافي أن نصل إلى استعادة المجد القديم الذي افتقدناه، لكن دون أن يغفل عن الإشارة إلى بعض الرواسب الثقافية في فلكلوره متجذرة في تراثه الشعبي، التي اعتبرها من أسباب انحطاطه ومن مسببات قابليته للاستعمار؛ التي كانت أساس اهتمام صبه ضمن تحليل نسق « مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي » مطبوعها وموضوعها، ميّتها ومميّتها، أصالتها وفاعليتها..، فمشكلته في النهاية منذ انحطاطه مابعد عصر الموحدين هي مشكلة أفكار كما يقول في تضاعيف مؤلفاته، بها ينظّم خطاه في ثبات الأديم، ويدفع طاقته في مضاء العزيمة، ويشدّ وسائله في وثيق الانجاز؛ « فتراثه الذي ورثه من عصور الحضارة الإسلامية المطبوع الأصيل غدا أفكارا ميّنة، أما نماذجه الروحية فقد خانتها أفكاره الموضوعة التي خالفت عن نسق النموذج المطبوع الذي أرساه العصر الأول(25) ».

وبالتالي فهو لم يتوانى في نقد الأفكار القائلة التي كان يرى أنها تقف حجر عثرة أمام النهضة، وتلك التي تتواطى مع المعامل الاستعماري وتسهّل له مهمّة التّحكم بمقدراتنا؛ من ذلك مثلاً انتقاده للزّردات الصّوفية التي كانت تخذّر العقل الجزائري وتربطه بالأوثان: «حيث كان الوثن يسيطر في ظل الزّوايا حيث أرواحنا المتسكّعة تذهب لالتماس البركات واقتناء معجزات الحجاب، وفي كل مرة

تختفي فيها الفكرة يهيمن الوثن من جديد»...، ومن هذه الأوثان التي اتفقت وأن بدت في روايته لجوء زهرة إلى (القَرَانات)، تُجَدّد عندهن الأمل في عودة إبراهيم إلى رشده، أو في استعمال جارة إبراهيم لـ(البوقالة) التي تنتظر منها فأل خير يحمل لها خبرا جديدا..

كما كانت الحياة المادية التي يعيشها إبراهيم، والأخطاء التي ارتكبها، ولم يفتن إلى فداحتها، هي ما مثّل له بن نبي في حديثه عن الأفكار مطبوعها وموضوعها، بكونها الأخطاء التي تأكل من أسطوانة عالم الثقافة، وتودي به إلى الانحطاط، الذي يستمر إلى اللحظة التي يقف فيها لحن الأفكار، وتتلف الأسطوانة وتمّحي في نفس كل فرد، ويصبح الصمت تامّا، وتزول ردّات الفعل الحماسيّة وردّات الفعل الرافضة للأصوات النّشاز، إنّهُ صمت الأفكار الميّتة، فالأفكار الموضوعية حين لا يعود لها جذور في الغلاف النّقّافي الأساسي تصمت بدورها إذ لم تعد لديها ما تعبّر عنه، ثم لأنّها لم تعد تستطيع أن تعبّر عن أي شيء.

والمجتمع الذي يعيش هذه الحالة حسب بن نبي يتفتّت لأنّه لم تعد له دوافع مشتركة، فكيف يرى شروط العودة به إلى الجادة من جديد؟، إنّهُ مع شرط إرادة الانسان للتغيير يضيف بن نبي أنّ إحياء عالم ثقافته المحشوّ بالأفكار المميّنة كفيل بذلك، عن طريق أفكار أصيلة مطبوعة، وذلك عين ما التمسّه كما قال لناشره أنّه يريد من خلال روايته هذه أن يمسّ "ذلك الجزء المهمّ من القيم والعادات الجزائرية التي لا تبعد كثيرا عن القيم الإسلامية"، ذلك الجزء النّابع من عمق الروح الجزائرية وشخصيّتها المنتمية إلى تراث النّقّافة والحضارة الإسلاميّة المنشدّة إلى منازل الوحي، وخصوصا في تعاملها مع أعظم شعيرة في الإسلام، وأكبر النّسك التي يتقرّبون بها إلى الله وتترك فيهم من آثارها الرّوحية العظيمة، ما يجعل كل النّاس تحترم الحاجّ .

بل إنه كان ليؤكد من خلال روايته شيئا أكثر من ذلك، وهو أنّ هذه القيم بإمكانها أن تكون حامية ومنجية للشخصيّة ومكوّناتها، وهي التي ستحمي حضارتنا من الدّوبان والاضمحلال. ليعدّ دور الدّين لا في أصالة فكرته ولكن في فاعليته التي تشدّ دائما أفراد المجتمع لتعيدهم نحو تلك القيم مهما ابتعدوا عنها، ومهما أثّرت فيهم دعوات الماديّة الفجّة، تماما كما حدث للحاج إبراهيم، فقد كان يمثل تلك العودة إلى الروحانية والصفاء بفعل نداء «لبيك»، كما أشار إليها عمر مسقاوي في مقارباته موضحا تأثير كلمة كـ «لبيك» في روح المسلم: «حين تتقدم الرّوح على مرامي النّص تكتسب الأمّة حصانة تراثها حتى في حالة ركوده. وتصبح المصطلحات المغموسة بزيت الإيمان

تضيء في ظلمة الضبابية واليأس، كما في نور التجدد والحياة. إذ الكلمات هي التي تستدعي روحها كتلك الروح التي أنجبت في إبراهيم والمجتمع الفطري .. حين نادى المنادي من وراء الغيب: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ» فانهمر دمع الحنين في الفقراء في مصطلح الحج».

فيغدو هدف مالك الأخير من خلال «لَبَّيْكَ» هو دفع المجتمع الإسلامي في مواجهة العصر الجديد أن يعطي لأصالة أفكاره فعالية تضمن لها النجاح. إنه مدعو لأن يستعيد تقاليده العليا ومعها حسّ الفعالية. كما يركز مالك هنا في عودة إبراهيم إلى الجادة، على إعطاء قارئه فرصة التأمل في هذه المرحلة من تاريخ المجتمع، حين يولد، أو حين ينهض، وذلك عن طريق تمسكه بالمبادئ التي شيدت البناء الحضاري الإسلامي، وهو ما أفرد له كتابا يبحث من خلاله العناصر التاريخية لـ« ميلاد مجتمع».

وخلاصة القول فإن مفكرنا قد كشف عن مجموعة من الأسس التي ترسّبت في الوعي الجمعي لشخصية المجتمع المسلم، ودعا إلى أن من خلالها يمكننا التمسك بالقيم الحضارية الإسلامية، لتذكّرنا الرواية بأنّ قيمنا وهويّتنا هي طريق نهضتنا، وأنّ عودتنا لتلك الأصول هي التي يجب أن ننطلق منها لرسم حياة جديدة وحضارة اتّصالية. وعليه فإن كاتبنا يكون قد أسهم بجلاء في تحليل عمق الروح الجزائرية المتسمة في كثير من أبعادها برسوخ القيم، دون أن يغفل عن تفصيل ما اعتراها من سوء أصاب إنسانها.

وبعد هذه البسطة التي استطاعت فيها رواية قصيرة وبسيطة لمفكر كبير أن تولّد كل تلك المعاني الحضارية العميقة إذ أعاننا على استكشافها ربطها بمشروعه الفكري، أمكن لنا أن نتأكد أنّ مالكا لم يبدو أدبيا يروي لنا قصة أدبية ويحبك أحداثها فحسب، وهو الذي ينعى على العرب انشغالهم بالنظم الدقيق والكلمة الأدبية الأنيفة أو نزوعهم إلى الشعر، كوسيلة رشيقة مناسبة تخفي مواضع النقص والاختلال التي اعتبرها إحدى مساوئ إنسان ما بعد الموحدين، هذا بالرغم من كون سعيه الأول في شبابه هو أن يغدو "كاتب قصة"، لكنّه أبى إلّا أن يكون بدلا عن ذلك "صاحب قضية يُدافع عنها" كما صرّح بذلك لابنه الرّوحي، ولست أرى في ذلك إلا رسالة يوجّهها إلينا، ويدعونا من خلالها إلى التّضحية بطموحاتنا الشخصية أمام قضايا الأمّة وحضارتها، فنمو أمتنا محفوف بالصعوبات التي هي من علامات نموها كما يقول مالك بن نبي من خلال تأملاته في المجتمع العربي، التي إذا قدرناها فإنه ينبغي علينا أن نسلّك إزاءها مسلك الطبيب أمام الأمراض، ونعرف

أن مصدرها ناشئ من خلل في إحدى العوالم الثلاث (الأفكار، الأشخاص، الأشياء أو لخلل في العلاقة بين هذه العوالم).

فسواعد الجيل المقبل يُنتظر منها بعد كل جيل أن يُشمرّ عليها، تماما كما فعل إبراهيم عندما تاب وعاد ليُباشِر (العمل)، وإن كان عمل إبراهيم بسيطاً، لكنّ توجيهه الصّحيح يمكن أن يثمر إذا كان من أهدافه هدف اجتماعي لا كسبا للقوت اليومي فحسب، وهذا العمل وتوجيهه لا يؤتي أكله إن لم يكن مصحوباً بنزعة تحدّ يخالجها نبذ العوامل الداخليّة الكامنة فينا كالقابليّة للاستعمار والروح الانهزامية وقلة الفاعليّة، فتحدّي هادي ونقاوة نفس إبراهيم ورغبتها في التغيير دفعت بهما إلى أبعد الأمصار، لأنّ عزمتهما أقوى من أن تقهر.

لذا يمكننا اعتبار هذه الرواية رسالةً اختار بن نبي أن يبيّنها للجيل القادم، الذي يريد منه أن يعرف منذ بداية خطواته الأولى إلى أيّ هدف بعيد قد انطلق، مستعيدا مسيرته سندا لرسالة القرآن الكريم وبلاغها في صبح عالمٍ جديد يتأهّب للخروج من مأزق معاصر بدفع من روحه نحو خلاص البشرية... وأخيرا وفي نهاية هذه المحاولة يكون قد صحّ لدينا كثير مما ادّعينا بأن «لبيك» أمكن لها مع بساطتها أن تحمل في دواخلها المعاني الحضارية العميقة التي لا يتاح لنا معرفتها إلا من خلال ربطها بخيوط فكر بن نبي.

خلاصة :

في الأخير ليس لي ما أقوله سوى كلمة "عمر مسقاوي" في تصدير الكتاب حيث يقول: «الظاهرة القرآنية» هي مطالع الأفق، «ولبيك» هي زاد المسار... وتبقى «شروط النهضة» خطّة البناء التّربوي إلى المرتقى، تاركين في نهاية المطاف «سلسلة مشكلات الحضارة» معالم إرشاد في طريق خطّته الوحيدة، فحتى نصل إلى النهضة ينبغي العمل بشروطها، وهو ما يمكن أن نبداً غرسه من خلال قصة روائية نغرسها في الجيل القادم حتى يعرف إلى أي هدف سيصل.

هذه جولة خاطفة لرواية (لبيك... حج الفقراء) لمالك بن نبي، تحدثنا بسرعة عن أحداثها، ووصفنا بعجالة بطليها، وبيننا كيف قررا الثورة على الوضع، ونحن نعلم أننا لم نوف الرواية حقها، وهي جديرة بالدراسة من كل نواحيها وبمناهج متعددة. وحسبنا نحن هنا أننا أردنا أن نثبت أمرين وهما:

1 أن مالكا روائي فذ، لكنه لم يكمل المسير أدبيا بل اختار تدوين أفكاره الحضارية دون مداورة و

بشكل مباشر في كتاباته.

أن مالكا هو رائد الرواية الجزائرية دون منازع.

الهوامش:

- 1* إدريس بوزيية، الرؤية والبنية في روايات الطاهر وطار، منشورات جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، ط 1، 2000، ص 14 .
- 2* د/ عبدالله الركيبي، الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط 1، 1982، ص 144 .
- 3* الرؤية والبنية، مرجع سابق، ص 19 .
- 4* الأوراس في الشعر العربي، مرجع سابق، ص 151 .
- 5* عمر كامل مسقاوي رفيق وصديق وتلميذ مالك بن نبي، وهو الوصي الوحيد على كافة أعماله بوصية تركها مالك بن نبي في المحكمة الشرعية في طرابلس الشام سنة 1971م ، حيث حمله مسؤولية كتبه المعنوية والمادية.
- 6* مالك بن نبي، لبيك... حج الفقراء، ترجمة د/ خوليف زيدان، دار الفكر، دمشق، ط 1، 2009، ص 10.
- 7* ينظر آراء الدكتورين محمود محمد شاكر، ومحمد عبد الله دراز في تقديمهما لكتاب الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي، الظاهرة القرآنية، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق(سوريا)، ط6، 1427هـ-2006م، ص(9-50)، و ينظر: لبيك. 24 وما بعدها.
- 8* المصدر نفسه، 24.
- 9* المصدر نفسه ، 25.
- 10* المصدر نفسه، 35.
- 11* المصدر نفسه ، 45.
- 12* المصدر نفسه ، 56 .
- 13* المصدر نفسه ، 71.
- 14* المصدر نفسه ، 55 .
- 15* المصدر نفسه ، 56
- 16* المصدر نفسه ، 76
- 17* المصدر نفسه ، 96
- 18* المصدر نفسه ، 130

- 19* المصدر نفسه ، 156.
- 20* المصدر نفسه ، ص.157.
- 21* مالك بن نبي، مذكرات شاهد للقرن، دار الفكر، دمشق(سوريا)، دار الفكر المعاصر، بيروت(لبنان)، ط2، 1404هـ-1984م، ص.345.
- 22* المرجع نفسه، ص.297.
- 23* المرجع نفسه، ص353 و ما بعدها.
- 24* مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، و عمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق (سوريا)، ط1406هـ-1986م، ص61-62.
- 25* مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة/بسام بركة، ود/أحمد سعيو، دار الفكر، دمشق(سوريا)، دار الفكر المعاصر، بيروت(لبنان)، ط1423هـ،2002م، ص63 و ما بعدها.